العقيدة الفاطمية

فى

شـــعر ابن هانىء الأندلسى

للأستاذ مصطفى عبد الخالق خلوف

ابن هانىء الأندلسى من أعظم شعراء العربية قوة ديباجة ، وامتداد نفس وقدرة بيان ، ومن أعظمهم تفننا فى تقليب الفكرة ، وتوشيتها لضروب الخيال فهو شاعر فنان من الطراز الأول . ولست هنا بسبيل تاريخ حياته ، ونقد أدبه . إنما أنا فى شأن شغلنى أمداً طويلا ، ووقفت حركة فكرى عنده فلم تتعين مراميه ، ولم تدرك أغراضه منذ عهد طويل . ذلك أنى أقلب دواوين الشعراء ، فإذا استعصى على بيت أو أبيات رضتها على فهمى مرة ، وعلى معاجم اللغة أخرى ، حتى يسلس قيادها . أما أبيات من شعر ابن هانىء ، فقد هالنى أمرها وعييت عن إدراك سرها . منها قوله يمدح المعز لدين الله الفاطمى حينما حل بمدينة رقادة بالمغرب :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو البرايا وكل شىء سواه ريح

وقوله لحامل مظلة المعز :

أمدبرها من حيث دار لشدما زاحمت تحت ركابه جبريلا

وقوله فى المعز أيضا :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

عجزت عن فهم هذه الأبيات . فمعانيها يأباها الدين ، وتعد جرأة غير مستساغة ، فليس مما يرضاه الدين أن ينزل المعز فى رقادة فيقال إن الله والمسيح وآدم ونوحا حلوا بحلوله ، وكذلك صاحب المظلة يحميه من الشمس ، فيرى جبريل فى ركابه ، وأن مشيئته فوق مشيئة الأقدار ، وهو الواحد القهار . ولا يقبل الذوق مبالغات من هذا النوع وكلما خطرت ببالى هذه الحيرة عمدت إلى بعض التراجم لطوائف من الشعراء فقرأت فيها ترجمة ابن هانىء فعلقتنى بكلام لا يشفى غليلى فمرة تقول : إنه شاعر كثير المبالغة . ومرة تقول : إنه شاعر كافر بالله .

امتد بى الأمد فى هذا الشك ثم قلت فى نفسى : أكان يرضى الممدوح خليفة رسول الله وأمير المؤمنين عن هذا الشعر ؟ لابد أن يكون الأمر كذلك ؛ لأن الشاعر المداح صدى لما يحبه الممدوح ويرضاه . إذن فالمعز شريكه فى الإثم إن كان آثما .

فى الإمر سر لا أعرفه . دعانى هذا التقلقل النفسى أن أجمع طائفة من ثنايا شعر ابن هانى فى المعز لدين الله وأن أستقصى العلماء والأدباء عن كتب الشيعة والفاطميين خاصة ، فقرأت منها جملة لا بأس بها شفت نفسى ، وهدتنى إلى ما يرمى اليه ابن هانىء بهذه الأوصاف ، التى لا يعرفها جمهور المسلمين لخلق الله ، وإنما يعرفون بعضها لله وبعضها لمحمد عبده ورسوله . وإن إزجاء هذه الخلال للخليفة الفاطمى هو تقرير للعقيدة الفاطمية ، وصدى لما يضطرب فى نفس المعز ، ورجال دولته ، ومن اعتنق مذهبه الفاطمى الإسماعيلى ، وأن ابن هانىء ليس إلا داعيا من دعاة الفاطميين ، يبشر بمذهبهم فى الناس وهو مكين عندهم مقدم فيهم . مضى الصدر الأول للإسلام وأهل بيت الرسول أحب الناس

إلى قلوب المسلمين ، فهم يتمثلون فى وجوههم وشمائلهم مظاهر النبى ، وبعض خواصه الجسمية والنفسية ، فيزدادون لهم حبا . يتشممون أنفاسهم الطاهرة ويعطرون المجالس بعذب حديثهم ، ولا غرو فهم جزء من النبى ، وقبس من نوره . أما هذه الخيالات التى نسجت حولهم ، والأقداس التى حامت فى وجوههم والهرطقات التى نسبت إلى أتباعهم فهى سهام مسمومة ، صوبت إلى قلب الاسلام ، ففرقته شيعا وأحزابا ، وفشت فى الاسلام ألوان من الوثنية والدعاوى الكاذبة . وأعان على تلك الأقاويل المضخمة حول آل البيت ظروف سياسية مكنت لضعاف الثقافة القرآنية وللمتيمين بحب على وذريته أن يغلوا فى حبهم ماشاءوا ، حتى تحول خرافات يأباها الذوق السليم ، وينفيها دين الفطرة ، الذى دعا إلى توحيد الله ونبذ ماعداه من الأوثان والأصنام. فقد رأى شيعة على أنه اضطهد ؛ إذ تقلد الخلافة غيره بعد وفاة النبى ، فاشتد تعلقهم به . ثم لما كانت فتنة عثمان كان للمتعلقين بعلى ضلع فى قتله ، وإن كان على بريئا ثم هاج جمهور من المسلمين على على يحاول نزع الخلافة منه بعد بيعة صحيحة. كل أولئك سهل لبعض الناس أن يتعلق بعلى إلى درجة الكفر ، فقد روى التاريخ أن ابن سبأ قال بألوهية على ، فأحرق قوما منهم ، ونفى ابن سبأ إلى المدائن ، ثم كان حظ أبناء على سيئا فى طلب الخلافة ، فكان قتل الحسين شنيعا ، والاضطهاد ينصب على العلويين فى العصر الأموى والعباسى ، فكان كل أولئك سببا فى شدة تألم الأمة لما حل بآل بيت النبى ، فجرؤ الشيعة على تأليف تشكيلات سياسية ممزوجة بالدين ، تضمن أن تئول الخلافة إلى ذرية على مهما طال الزمن ، وأدى هذا التعلق إلى وضع أحاديث مكذوبة على النبى فى شأنهم وغلا اتباعهم حتى وضعوا مبادىء سياسية دينية ، أضافوا إليها تأكيدات تخرج بهم عن دين الإسلام ، حتى عد العلماء غلاة الشيعة خارجين على الإسلام. معدودين فى صف الكفار . قال ابن الجوزى — فى كتابه (تلبيس إبليس):

إن الشيعة طالبت زيد بن على بالتبرى ممن خالف عليا فى إمامته ، فامتنع من ذلك فرفضوه فسموا الرافضة ، ومنهم من يقول إن أبا بكر ظلم فاطمة ميراثها. وقد روينا عن السفاح أنه خطب يوما فقام رجل من آل على رضى الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين أعدنى على من ظلمنى قال : ومن ظلمك؟قال : أنا من أولاد على بن أبى طالب والذى ظلمنى أبو بكر حين أخذ فدك من فاطمة. قال : ودام على ظلمكم ؟ قال : نعم . قال : ومن قام بعده ؟ قال : عثمان . قال : ودام على ظلمكم ؟قال : نعم . قال : ومن قام فجعل الرجل يتلفت كذا وكذا ينظر مكانا يهرب إليه (لأن عليا لما تولى الخلافة لم يرد فدك إلى آل الرسول)وغلو الرافضة فى حب على حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه .

قال الغزالى من رسالته فى الرد على الباطنية: (أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات وأن كل زمان لابد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين . أما تفصيل مذهبهم فيتعلق بالإلهيات والنبوات والحشر والنشر)

نظمت هذه الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية نسبة إلى جدهم إسماعيل بن جعفر الصادق فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى جنوب فارس وكانت ترمى إلى غاية سياسية ، وأسفرت عن فوز القرامطة فى البحرين ثم غزت إفريقية بعد ذلك ، ونشأ عنها قيام الدولة الفاطمية فى أواخر القرن الثالث . ويرى بعض المؤرخين أن الفاطميين ليسوا من نسل فاطمة ، وإنما هم ملاحدة من المجوس وأن رئيسهم يسمى ميمون بن ريصان المعروف بالقداح . تظاهر بالإسلام والتشيع ، وانضم إليه كثير من غلاة الرافضة والحلولية الذين يقولون إن الإله حل فى على ، والأئمة المختارين من بنيه ، وحمل الدعوة بعد ميمون ابنه عبد الله ، فنظم الدعوة ، وكان يدعى العلم بالغيب والأسرار الروحية والعلوم

الخفية ويزعم أنها انتهت إليه من جده ... بن ... اعيل بن جعفر الصادق . وهو عند الشيعة مستودع العلم ، والأسرار خفية ويقال إن عبدالله بن ميمون أو بعض ذريته جاء إلى مصر [١] ، ونشر دعوته فيها ، ثم رحل إلى المغرب وهنالك انتقل من عالم الخفاء وادعى أنه المهدى المنتظر ، من ولد فاطمة وتوارث الإمامة أبناؤه من بعده .

وإنما عرفت بالدعوة الباطنية لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا .

قلت إن التشكيلات السياسية المزدوجة بالدين للدعوة الفاطمية وقيام الخلافة على أساسها كانت محكمة جدا ، ويظهر أن الزمن الطويل علمهم التفكير الطويل ، فظهر فى المغرب أبو عبد الله الشيعى داعى الدعاة يدعو لإمامة عبيد الله المهدى من نسل فاطمة الزهراء .

وكان أركان هذه الدولة أقوياء أشداء لا يبرمون أمرا فى الجهر إلا إذا تشاوروا فيه فى السر وهم يعرفون أن جمهور الأمة الإسلامية سيزور عنهم فعملوا على استرضائه بالحيلة والدهاء حتى يصلوا إلى غرضهم من النفوذ السياسى ، وكذلك فعلوا فى مصر فقد نفر منهم المصريون ، فوزعوا عليهم الغلات والخيرات فعم الخصب والرخاء وتركوا حرية الاعتقاد موفورة للمسلمين من أهل السنة والنصارى واليهود وتعاونوا مع كل ذى مذهب .

ثم قويت روابطهم السرية وانتشرت فى العالم الإسلامى وينوب عن الخليفة فى هذه المهمة قاضى القضاة وداعى الدعاة حتى كانت الدعوة الفاطمية فى كل مكان من غير أن يشعر الحكام أو يحسوا . غير أن الهوس أدرك الحاكم بأمر الله فأعلن بعض مابطن من أمورهم ، فضج أهل مصر وانتهى الأمر بقتله والرجوع إلى الأنظمة السرية وجس النبض فى نشر الدعوة .

---

(١) رأى المقريزى أن نسبهم صحيح ، لأن بنى على كثيرون ولا حامل لشيعتهم عن الاعراض عنهم والدعاء لابن ميمون . وإنما هذه دعوى من العباسيين .

وسياج الشيعة إلى اليوم هو مايسمى فى الدين بالتقية وهى أنهم أجازوا لأنفسهم ستر مافى نفوسهم وإخفاءه على الناس حفظا لأرواحهم وتعمية على من لم يكن مستعدا للتلقى فلست تجلس إلى شيعى من العراق أو إيران أو الهند إلا أرضاك. فى الحديث.

ولقد صادف أن تعرفت بهندى من الشيعة العلماء وأفضنا فى الحديث عن مذهب الشيعة وأخذت أنقضه رأيا رأيا وهو فى كل ذلك موافق على ما أقول حتى استحييت من نفسى.

وسأشرح بعض أركان المذهب الفاطمى واستشهد على ماأقول بأبيات من شعر ابن هانىء.

(١) مذهب الحلول وادعاء علم الغيب:

الإمام ليس إنسانا كباقى البشر ولكن الروح الإلهية حلت فيه واتخذت صورته وهذه الدعوى سبق بها عبد الله بن سبأ فى على بن أبى طالب فاذكرنا فيقول هؤلاء الإسماعيلية: إن الجزء الإلهى يحل فى الأئمة بعد على، وإن هذا السر يودعه كل إمام فيمن يأتى بعده وهكذا. ويزعم بعضهم أن روح الإله دارت فى الانبياء ثم فى الأئمة. فلا تخلو الدنيا من إمام إلى يوم القيامة ومادام الأمر كذلك فالإمام معصوم وإن لم يكن نبيا؛ لأنه ملهم من الله ومؤتمن على هداية الخلق بعد النبى. والإمام قائم مقام أمر الله وكلمته فى هذا العالم فجميع صفات البارى يصح أن يوصف بها فى زعمهم. وفى هذه الأغراض يقول ابن هانىء فى مدح المعز:

وأنت معد وارث الأرض كلها فقد حم مقدور وقد خط مكتوب
ولله علم ليس يحجب دونكم ولكنه عن سائر الناس محجوب

***

وما كنه هـذا النور نور جبينه ولكن نور الله فيه مشارك

***

حتى إذا استرعاك أمر عباده أدنى إليه أباك إسماعيلا
وورثته البرهان والتبيان والـ ـفرقان والتوراة والإنجيلا
وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت جبريلا وميكائيلا
لولا حجاب دون علمك حاجز وجدوا إلى علم الغيوب سبيلا

***

الأئمة خلقوا من نور يعلمون الغيب وهم عند الدنيا:

روى الشيخ موسى جار الله في كتابه (الوشيعة في نقد عقائد الشيعة) قال : للأئمة على ما تروية أمهات كتب الشيعة كلمات ثقلت في السموات والأرض. وإليكم أمثلة قليلة من تلك الدعاوي الكثيرة التي لم تكن تنبغي لنبي ولم تكن أصلا من النبي الكريم محمد صلى الله عليه وعلى آله وأمته وسلم . جاء في كتابهم الوافي:

ا — كنا عند الله ربنا ليس عنده أحد سوانا مامن ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا روح غيرنا ثم بدا له في خلق السموات والأرض فخلق ونحن معه.

ب — إن الله خلق أرواحنا من نور عظمته ثم خلق أبداننا من طينة مكنونة تحت العرش .

ج — كان جعفر الصادق يقول : إني أعلم ما في الجنة وما في النار وأعلم كل ما كان ومايكون ولو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما فالإمام أعلم من الأنبياء .

د — ليس يخرج شيء من عند الله إلا ويبدأ برسول الله ثم بأمير المؤمنين علي ثم بواحد واحد من الأئمة ليكيلا يكون آخرنا أعلم من أولنا . فالأئمة يعلمون كل العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والمرسلين وكل اللغات

هـ — خلق الله محمدا وعليا وفاطمة أول ماخلق فمكثوا ألف دهر ثم خلق العالم ثم فرض طاعة هؤلاء على العالم وفوض أمورهم إلى هؤلاء الثلاثة

فهم يحلون ماشاءوا ويحرمون ماشاءوا . والدنيا بجميع مخلوقاتها خلقت للإمام وهو هو علتها) .

نور محمد والأئمة خلق قبل نور العالم حتى يقال إن الله تعالى أخذ من بنى آدم ميثاق ولايتهم ، ونور الله الأزلى مازال متنقلا من إمام إلى إمام بعد النبى ﷺ حتى اتصل بالمعز وهو النور الذى توسل به الأنبياء فاستجيب دعاؤهم .

أما جبريل ملك الوحى فإنه نزل على محمد ﷺ ومن بعده لم يصعد إلى السماء بل بقى فى نورهم ممثلا .

قال ابن هانىء فى مدح المعز :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ماكانت الأشياء

من شعلة القبس التى عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سلالة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء

هـذا الشفيع لأمة يأتى بها ... وجدوده لجدودها شفعاء

هـذا أمين الله بين عباده ... وبلاده إن عدت الأمناء

فعليه من سيما النبى دلالة ... وعليه من نور الإله بهاء

نزلت ملائكة السماء بنصره ... وأطاعه الإصباح والإمساء

وقال أيضا : وفيه أن الإمام أفضل من الأنبياء .

لو كنت آونة نبيا مرسلا ... نشرت بمبعثك القرون الأولى

أو كنت نوحا منذرا فى قومه ... ما زادهم بدعائه تضليلا

وقال وفيه علم الإمام بجميع اللغات لأنه المترجم من الله إلى البشر :

لكم جامع النطق المفرق فى الورى ... فمن بين مشروح وآخر مبهم

إذا كان تفريق اللغات لعلة ... فلا بد فيها من وسيط مترجم

الكتمان وأنه لكل ظاهر من القرآن باطنا : —

سبب الكتمان عندهم التقية والهرب من العقاب قبل أن يظهر أمرهم ثم صار ذلك لهم دينا وعقيدة . ولما كان الناس قسمين شيعة وحيرا . جعلوا علم القرآن الخفى خاصا بالشيعة فهم يؤولون القرآن على حسب ما يرى الإمام لأنه يعلم عن الله ما يريده من آيات القرآن الخفية . أما ظاهر القرآن فللحمير من غير الشيعة . جاء فى كتاب الكافى من كتبهم : —

سأل ثلاثة من الناس جعفرا الصادق عن آية واحدة فى كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب . واختلاف الأجوبة فى آية واحدة كان يقع إما على سبيل التقية وإما على سعة التفويض للإمام ؛ فله أن يبين معنى الآية على حسب ما يراه .

اتخذ هؤلاء الغلاة حيلة الكتمان ليغيروا ويبدلوا فى الدين ، ولا يعلنون ما يفقهون إلا للخاصة فالله أعطاهم فهم ما لا يفهم الناس وعقول الناس ليست صالحة لتلقى كل العلم فهم يعلمونهم بقدر . وهذه الخطط السياسية الممزوجة بالدين يشاركهم فيها شعبة العراق وإيران والشام والهند غير أن العالم تغير ولا ثمرة للتعلق بالخلافة . قال ابن هانى : —

والله خصك بالقران وفضله واخجلتى ما تبلغ الأشعار؟

وقال : —

وفى الناس علم لا يظنون غيره وذلك عنوان الصحيح المحتم
إذا كانت الألباب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم تكتم

وقال :

ماذا تريد من الكتاب نواصب وله ظهور دونها وبطون

وبالنظر فى هذه العقائد تفهم الأبيات التى سقتها فى أول المقال .

هذه جملة من عقائد الشيعة الغالية الإسماعيلية التى ملكت المغرب ومصر والشام وتسمت بالدولة الفاطمية وأرادت أن يعم حكمها العالم الإسلامى وأن ترث الخلافة العباسية ولكن الله اللطيف بعباده أرسل عليهم شواظا من نار صلاح الدين الأيوبى فعفى على آثارهم وقتلهم تقتيلا وأحرق كتبهم ولم يبق فى مصر من آثارهم إلا الأحجار والملك لله يؤتيه من يشاء.

حلوان — مسنين حسن محلوف